

المبحث الثاني

في حقيقة المعجزة عند ابن رشد

مفهوم المعجزة عند ابن رشد

شروط المعجزة عند ابن رشد

المعجز الحسي والمعجز العقلي عند ابن رشد

حقيقة المعجزة عند ابن رشد

أولاً : مفهوم المعجزة عند ابن رشد :

- اهتم ابن رشد ببيان مفهوم المعجزة وحقيقتها وحكم الاعتقاد بها والفرق بينها وبين باقى الخوارق وذلك فى المؤلفات التى خصصها للرد على آراء الفقهاء وأصحاب المذاهب وفى مقدمتهم الأشعرية والغزالي مثل : الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، تهافت التهافت ، حيث أكد أن المعجزة هى الآية الواضحة بذاتها والدالة على القدرة والإرادة والحكمة الإلهية وليست هى الخارقة التى تخرج أو تخرق قوانين العادة والطبيعة والحتمية . ومثالها القرآن الكريم بوصفه الآية المعجزة الصادقة والمقنعة بذاتها والتى وجب على العقل إدراكها والتصديق بها . فالمعجزة عند ابن رشد : الآية المقنعة الدالة على قدرة الله ، وعلى صدق الرسول ورسالته .

★ ويدلل ابن رشد على صدق رؤيته هذه بأدلة منها :

١ - إن وضع المعجزة فى إطار الواجب العقلى أفضل من وضعها فى إطار الممكن ، بمعنى إمكان خرق العادة وقوانين الطبيعة ، وإذا كانت المعجزة ممكنة من حيث الحدوث والإدراك ، فإن هذا الإمكان مرده أن قدرة الله على عمل يعجز عنه الإنسان أمر لا ينكره مؤمن بالله ، ولا ينكره العقل كذلك . وعلى ذلك فالمعجزة أمر يجيزه الشرع ويقره العقل ، وإرادة الخالق لا يعجزها أمر من الأمور .

٢ - إن الإيمان بالله والرسول واجب قبل الإيمان والتصديق بالمعجزات بوصفها خوارق ، مع ضرورة فهم أن المعجزات ليست كلها خوارق وليست كلها حسية مشاهدة . ودليله أن الإسلام لم تكن من حججته المعجزات ، بل كانت معجزته آيات الكتاب المحكمة فى التنظيم والترتيب والأسلوب والبلاغة والمعرفة . ولو صدق الناس بالمعجزات الحسية وحدها لما جاء القرآن على هذه الصفة من

الحكمة والإقناع وبدليل قوله تعالى : " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون " (١) .

٣ - إن المعجزة هي الشريعة نفسها التي (صرح) بها واضع الملة وصدع بها النبي ﷺ . فالشريعة هي الأصل الأول الدال على حقيقة المعجزة . من أجل ذلك فالمعجزة يجب أن تتميز عن باقي الأمور الخارقة للعادة كالسحر والكرامات أو معجزات الحس التي جاءت على أيدي الأنبياء والرسل كقلب العصا حية أو انفلاق البحر .

فهذا التميز للمعجزة كشرعية ورسالة دليل ابن رشد على أن المعجزة ليست هي الخارقة التي تخرق قوانين الكون المنظمة له ، ويدل في نفس الوقت على أن المعجزة هي الآية والدليل على صدق الأنبياء والرسل ، ومن ثم فالمعجزة يجب أن تكون هي الرسالة التي يأتي بها الرسل لإثبات نبوتهم وإثبات واحدية الإله وقدرته ، ولأن الدليل الوحيد والأكيد الذي يثبت صدق رسالة من الرسالات هي الشرائع نفسها التي تتضمنها تلك الرسالات والحقائق التي تكشفها للناس وما يكون فيها من صلاح وخير لهم . (٢)

ولتأكيد ذلك أوجب ابن رشد ارتباط المعجزة بالنبوة والرسالة وصدقها وسلامة جوهرها ، ولذا فالمعجزات كخوارق للعادة لا تقع في دائرة الإمكان بل تقع في المرتبة الثانية في الدلالة على صدق النبوة لأن الدلالة الأولى بالطبع هي الرسالة أو الشريعة التي يأتي بها الرسول وليس المعجزة الحسية المشاهدة ، بدليل أن النبي ﷺ لم تكن من حججته الخوارق بل دعوته وقرآنه. (٣)

٤ - إن المعجزة آية مقنعة وحقيقتها في مسايرتها لأحكام العقل والدين وأحكام الكون وقوانينه . ولأن المعجزة آية ظاهرة وصادقة فهي لا تحتاج إلى دليل أو برهان أو هي في نفسها الدليل والبرهان على صدق الرسل .

(١) الإسراء : ٥٩ .

(٢) عباس محمود العقاد : ابن رشد . ص ٦٦-٦٧ .

(٣) عباس محمود العقاد : ابن رشد . ص ٦٦-٦٧ .

والمعجزة بهذا الشكل خاضعة لإدراكات العقل والتصديق بها واجب ، وهى لا تخرج بحال عن نظام الكون الإلهى فى دقته وحكمته وقوانينه وحتميته . وبالتالى فالمعجزة ليست خارقة لقوانين العقل والعليّة كما ذهب الغزالي والأشعرية وفقهاء الكلام .

ودليل ذلك عند ابن رشد أن القرآن هو معجزة الإسلام المتميزة والمختلفة عن باقى المعجزات وخوارق العادات ، وأن القرآن كرسالة ومعجزة لا يتعارض مع قوانين العقل والعليّة لتوافقه مع المنطق والبرهان ، ويثبت ذلك ويؤكد أنه وسيلة العارف إلى الإيمان يصدق النبى ﷺ هو معرفة الحق فى دعوته وليست هى رؤية الخوارق ، فإذا وقعت المعجزة صدق المشاهد لها بأنها عمل لا يقدر عليه غير الإله ، فلا بد إذن من الإيمان بالله والتصديق بالرسول قبل الإيمان والتصديق بالخوارق والمعجزات .

٥ - إن المعجزة يجب أن تكون لحكمة مفهومه لدى الخواص الذين يستطيعون التمييز بين الخارق الذى من نفس وضع الشرائع والخارق الذى ليس من نفس وضعها ، أى أن حقيقة المعجزة وأهميتها يتطلب التمييز بين المعجزات التى هى خوارق للعادات وبين الرسالة كمعجزة ، كما يتطلب التمييز بين ما يدركه الخواص وبين ما يمكن أن يذاع للعوام .

ولقد حاول ابن رشد من خلال هذه الأدلة بيان مدى تميز المفهوم الذى يقدمه للمعجزة وحقيقتها عن تلك المفاهيم الشائعة التى قدمها المفسرون والفقهاء وعلماء الكلام وحتى الفلاسفة . ورفض ابن رشد أن تكون المعجزات خوارق على اعتبار أن هناك فروقاً واضحة بين المعجزة والخارقة كما هو الحال بين المعجز الحسى والمعجز العقلى ، وبين المعجزة وغيرها من الخوارق التى يقدمها أصحاب الحيل والتخييلات من السحرة أو تلك التى تأتى معونة للأولياء والصالحين وكراماتهم .

وفى هذا الإطار كان رفض ابن رشد للمفهوم العام للمعجزة بوصفها الأمر الذى يظهر بخلاف العادة فى دار التكليف لإظهار صدق ذى نبوة من الأنبياء أو ذى كرامة من الأولياء ، لأنه مفهوم لا يميز بين معجزة وأخرى أو نوع وآخر ولا

يراعى حكمة الله وغاية الوجود والخلق وانتظام الكون العام وفق قوانين العلية والضرورة . (١)

فالمعجزة فى مفهوم ابن رشد ليست خارقة لقوانين العقل والعلية وإلا تعارضت مع الحكمة والدقة التى تحكم الكون وتنظمه وهى فى حقيقتها ليست خارجة على نظام العلة والمعلول .

وحقيقة المعجزة عند ابن رشد لا تظهر إلا على أساس التصديق العقلى بوقوع المعجزات وارتباطها بالنبوة والتميز بين المعجزة وغيرها من الخوارق ، ثم تحديد مصادر العلم بالمعجزات والتى على أساسها يتم التمييز بين المعجزات والخوارق .

وهو يوضح ذلك فى كتابه " الكشف عن مناهج الأدلة " حين يقول : إن المعجزة علامة خارجية قد تؤكد وجود الرسالة وأن صاحب المعجزة نبى مرسل غير أنها ليست دليلاً على صحة رسالته ، وعامة الناس ترى فى المعجزة دليلاً إلا أن الدليل الوحيد الذى يثبت صدق رسالة من الرسالات هى الشرائع نفسها التى تتضمنها تلك الرسالات والحقائق التى تكشفها للناس وما يكون فيها من صلاح وخير لهم ، والمثال على ذلك رجلين كل منهما يدعى الطب أحدهما يبرهن على صدق دعواه بأنه يبرى المرض والثانى يثبت دعواه بأنه يسير على الماء ، فالسير على الماء أمر خارق ومعجز ولكنه ليس دليلاً على أن صاحبه طبيب . (٢)

وهذا يعنى أن الخارقة التى يطلق عليها البعض اسم المعجزة ليست وحدها دليل الصدق ، ومن ثم فإن الشريعة أو الرسالة نفسها هى الأصل الأول الدال على حقيقة المعجزة وليس مجرد الرؤية العيانية لخارقة من الخوارق ولذا قالوا بوجوب التمييز بين المعجزات التى هى من قبيل الخوارق وبين المعجزات التى يؤيدها الشرع ويدركها العقل ، لأنها معجزات تقوم على أساس التصديق العقلى من جهة والتصديق بالنبوات من جهة أخرى ، والمثال عند ابن رشد على ذلك رؤيا يوسف عليه السلام فى السنين العجاف والوصول للحكم ، وكذلك إعلام النبى ﷺ عن الأشياء

(١) ابن رشد : فصل المقال : ص ٣٢-٤٥ ، د. ماجد فخري : ابن رشد ص ١٠٨ .

(٢) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٢١٦ ، وفى النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد للدكتور/المراقى ص ٣٥٣-٣٥٤ ، وفى ابن رشد للعقاد ص ٦٧-٦٩ .

المستقبلية وحدثها بالفعل فتلك من دلائل النبوة الواجبة التصديق كما يقول ابن رشد .

وهذا التصديق يوضحه ابن رشد في معرض حديثه عن مصادر العلم بالمعجزات والتي على أساسها يتم التمييز بين المعجزات والإيمان بها فيقول في كتابه مناهج الأدلة أيضاً : أما من حيث مصدر العلم بهذا الأصل الأول فهو إنذار الأنبياء بوجود الأشياء التي لم توجد بعد فتخرج إلى الوجود على الصفة التي أنذروا بها وفي الوقت الذي أنذروا وبما يأمررون من أفعال وينبهون عليه من العلوم التي ليست تشبه المعارف والأعمال التي تدرك فتعلم ، فالإنسان قد اختص بالمعرفة والإدراك في القوة العقلية الفكرية التي بها يدرك حدوث الأمور النافعة والضارة في المستقبل يستعد للشئ ويتأهب له ، ويبشر بوفود الخير ويعلم وقوعه إذا حدث بهذه القوة أى الآلة الشرعية والإدراك الروحاني ، ولذلك قيل إنه جرى كذا أو كذا من النبوة ومثاله رؤيا يوسف ^(١) والسنين العجاف .

وهذا الأصل الأول - كما يقول ابن رشد - لا يفهم تماماً إلا بالترقية بين الخارق الذى من نفس وضع الشرائع والخارق الذى ليس من نفس وضعها ، وذلك أن الخارق للمعتاد (أى الخارق للعادة) إذا كان خارقاً فى المعرفة بوضع الشرائع ، دل على أن وضعها لم يكن بتعلم وإنما كان بوحي من الله وهو المسمى نبوة ، وأما الخارق الذى ليس من نفس الشرائع مثل انفلاق البحر وغير ذلك فلا يدل دلالة ضرورية على هذه الصفة المسماة نبوة وإنما تدل إذا اقتربت (أشارت) إلى الدلالة الأولى ، وأما إذا أتت مفردة (أى غير مرتبطة بالدعوة والرسالة) فلا تدل على ذلك .

فالأولياء مثلاً لا تدل أفعالهم على معجزات لأنها تأتى مفردات ، أما الخارق الذى يدل دلالة قطعية فليس موجوداً لهم لأنهم ليسوا بأنبياء أو أصحاب رسالات ليكون لهم معجزات ، وعلى هذا النحو يجب أن يفهم الأمر فى دلالة المعجز على النبوة ، وأما المعجز فى غير ذلك من الأفعال فشاهد لها أو مقر . ^(١)

(١) راجع هذا النص فى : الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٢١٦ وفى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد للدكتور عاطف العراقي ص ٣٥٣-٣٥٦ .

معنى هذا أن حقيقة المعجزة عند ابن رشد فى كونها آية وبرهان ودليل على النبوة وليس كدليل على الصلاح أو القدرة كما فى الكرامات أو الخوارق وهذا معنى قوله بأن الشريعة هى الأصل الأول الدال على حقيقة المعجزة ، وأن المعجزة الحقيقية هى التى يؤيدها العقل ويقر بها ، وأن التمييز بين المعجزات والخوارق لا يكون إلا على أساس النبوة والشرائع التى يأتى بها الرسل ، لأن هذه الرسالة أو المعجزة هى الدلالة القطعية على النبوة .

ولكى يدل ابن رشد على أن المعجزات ليست كلها من خوارق العادات ، وأن المعجزة الحقيقية هى الرسالة المحمدية المقنعة للعقل والمتوافقة مع الشرائع ومصالح البشر والغير متعارضة مع قوانين المنطق والعلية يعقد المقارنة بين معتقد العوام ومعتقد الخواص للمعجزة كشرعية وخارقة فيقول : " وإذا سأل سائل عن الدليل على كون القرآن خارقاً ومعجزاً من نوع الخارق الذى يدل دلالة قطعية على صفة النبوة أى الخارق الذى فى فعل النبوة الذى يدل عليها كما يدل الإبراء على صفة الطب الذى هو فعل الطب . أجب عليه بالقول بأن ذلك يوقف عليه من وجوه : أحدها أن يعلم أن الشرائع التى تضمنتها من العلم والعمل ليست مما يمكن أن يكتسب بتعلم أو بوحى ، وثانيها : ما تضمن من الإعلام بالغيوب ، وثالثها : من نظمته الذى هو خارج عن النظم الذى يكون بفكر وروية ، أعنى أن يعلم أنه من غير جنس البلغاء المتكلمين بلسان العرب سواء من تكلم منهم بذلك من قبل المنشأ عليه وهم العرب الأول .

وهكذا كان بيان ابن رشد لحقيقة المعجزة خير دليل على افتراء الفقهاء الذين وجهوا له تهمة إنكار المعجزات ، لا لشيء إلا لأنه رفض الفهم الخاطئ الذى شاع بين الجمهور والذى يوحد بين المعجزات والخوارق وبين المعجزات والكرامات ، كما رفض أن تكون المعجزات كلها على درجة واحدة أو أن تكون حسية ، وأخضع مبحث المعجزات للبحث العقلى وبراهين المنطق ودلائل الحكمة والشريعة ، ولم يسلم بالشروط التى وضعها المفسرون والفقهاء لوقوع المعجزة والتصديق بها .

فكان لزاماً على ابن رشد أن يثبت بالحجة والدليل مدى تميز المعجزة عن الخارقة ومدى تقدم المعجزة العقلية كالقرآن الكريم على غيرها من المعجزات

والخوارق ، ومدى ارتباط المعجزة بالنبوة والرسالة ومدى موافقتها لقوانين العقل والعلية . ويثبت أن مفهوم المعجزة لا تظهر حقيقته إلا في إطار مفهوم النبوة .

ولا شك أن رأى ابن رشد في المعجزة كان أكثر صراحة وموضوعية من آراء سلفه من الفلاسفة أو المتكلمين ومثال ذلك ما ذهب إليه الفارابي وأورده في فصوص الحكم وما أورده لما تريد في التوحيد والنبوة . فقد صرح الفارابي أن المعجزة يجب أن تكون من الأمور الموافقة للعقل لاتصالها بعالم الخلق الأكبر وهي لا تحرق العلة ولا تقتون الطبيعة، وتفسير ذلك عند الفارابي أن النبوة مختصة في روحها بقوة قسمية تدع لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تدع لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر فتأتي بالمعجزات ، وهذا الأمر وإن ظهر على أنه خارج عن الحيلة والعادات فهو لا يخرج على قوانين الطبيعة بل يتمشى معها ، فعالم الأفلاك هو مصدر هذه القوانين ، وما دامت القوة القسمية التي تختص بها روح النبي ﷺ تتصل بهذا العالم وترتبط بالعقل الفعال كان من الممكن أن تحصل أمور تبدو أنها على خلاف القوانين الطبيعية وما هي كذلك . (١)

وإذا كان رأى الفارابي يعضد رأى ابن رشد في جانب موافقة المعجزة لقوانين الطبيعة فإن رأى لما تريد يعضد رأى ابن رشد في جانب موافقة العقل بالمعجزة لأن العقل هو سبيل معرفة حجية الرسل وصدق الرسالات فالما تريد يرى أن المعجزة هي آية صدق الأنبياء وهي تخرج على خلاف الأمر المعتاد بين الناس ، وأنها من فعل الله تعالى الذي يجريها على أيدي من أرسلهم .

ويؤكد لما تريد أن دور العقل هام في إدراك حقائق المعجزات لأن معرفة النبوات ليست إضطرارية بل إكتسابية ، والعقل هو سبيل حجة الرسل والتميز بينها وبين تمويهات السحرة . (٢)

(١) الفارابي : فصوص الحكم - الثمرة المرضية ص ٧٢-٧٨ ، وفي الفارابي لسعيد زايد ط دار المعارف ١٩٦٢ . ص ٦٦-١٠٢ .

(٢) النبوة والأنبياء في الفكر الإسلامي . د. علي عبد الفتاح المغربي . مكتبة وهبة ط ٢ ١٩٩٤ . ص ١٢٦-١٢٩ .

ثانياً : شروط المعجزة عند ابن رشد :

قبل استعراض الشروط التي حددها ابن رشد لوقوع المعجزة والتصديق بها ، يمكن استعراض الشروط التي اتفق حولها الفقهاء ورجال الكلام وهي الشروط التي انتقدها ابن رشد ولم يوافق عليها وهذه الشروط هي :

١ - أن تكون المعجزة مما لا يقدر عليه البشر أى لا يقدر أحد من البشر الإتيان بمثلها .

٢ - أن تكون خارقة للعادة أى لما اعتاده الناس ، ومثالها المعجزة القولية كالقرآن الكريم والفعلية كنبع الماء وتحول العصا ثعباناً على يد موسى عليه السلام أو خروج ، الناقة من الصخرة زمن صالح عليه السلام أو تكون تركية مثل عجز النمل عن إحراق إبراهيم عليه السلام .

٣ - أن تكون على يد مدعى النبوة .

٤ - أن تكون مقرونة بدعوة الرسالة والنبوة .

٥ - أن تكون موافقة للدعوى ومؤيدة لدعوى الرسول وخرج بذلك المخالف لها ، كما إذا قال : إن آية صدقى إنفلاق البحر فإنفلق الجبل .

٦ - أن تكون دالة على صدقه لا دالة على كذبه كمسيلم الكذاب الذى ادعى النبوة فكانت أفعاله دالة على كذبه فجف ماء البئر واعتورت العين التى أراد إصلاحها . فصارت دالة على كذبه ، ومثاله كذلك إذا قال آية صدقى نطق هذا الجماد فنطق أنه مفتر كذاب .

٧ - أن تتعذر معارضة النبى ﷺ ومعجزته وخرج بذلك السحر وأعمال الشعوذة .

٨ - أن تكون فى زمن التكليف أى زماننا الدنيوى .

٩ - ألا تكون فى زمن نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها أو ما يقع من الدجال آخر الزمان كأمره للسماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تتبت فتبت . (١)

(١) راجع ما أورده القرطبى فى تفسيره والسالمى فى المشارق ص ٢١٧-٢١٨ والشيخ أحمد بن حمد الخليلى فى جواهر التفسير ٤٥-٤٨ .

ولقد حاول الشهرستاني في كتابه نهاية الإقدام في علم الكلام تحليل هذه الشروط مع التركيز على شروط ثلاث هي الإقتران أى إقتران المعجزة بدعوى الرسالة وأن تكون المعجزة ناقضة للعادة وأن تكون دالة على الصدق مع إضافته لبعض الشروط التى تشير إلى أهمية الجانب المعرفى أو الجانب الاعتقادى مثل شرط التمييز وعدم التكرار والإدراك والاعتراف .

ويمكن إجمال شروط المعجزة عند الشهرستاني فى :

١ - إقتران الدعوة بالمعجزة : أى أن الفعل بإختصاصه ببعض الجائزات يدل على إرادة الفاعل فإذا فعله عقب دعوته مقترناً بدعواه وهو صادق فى نفسه دل على قصده أى تصديقه وتخصيصه لرسالته . فهذا الإقتران محصور فى اشتراط الصدق لأنه كما يقول الشهرستاني : لو قدر ظهور مثل تلك المعجزة على يد كاذب لم يجز أن تقترن بدعواه النبوة بل تصرف عنه .. حتى لا ينقلب الدليل شبهة .

٢ - الاستجابة والتخصيص : أى تخصيص النبى بالاستجابة لدعواه ، ويكون تحقق المعجزة استجابة لطلب النبى ودعوته دليل على نبوته وتصديقه . فمن علم أن له عند الله دعوة مستجابة فدعا واستجيب له علم ضرورة أن المجيب أراد تخصيصه بتلك الإجابة كرامة له وإنعاماً عليه . فإله تعالى يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار . (١) ويقول تعالى : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمر أن يكونا لهم الخيرة من أمرهم . (٢)

٣ - التمييز وعدم التكرار : أى أن المعجزة لكى تكون كذلك لا يجب استمرارها أو تكرارها لأنه إذا استمرت خرجت عن الإعجاز والتحققت بالمعتاد .

٤ - نقض العادة : أى أن تكون المعجزة خارقة ناقضة للعادة ، لأن الصعود إلى السماء والمشي على الماء وإحياء الموتى وقلب العصا حية وأمثال ذلك نقض لعادة البشر ، فإذا اقترنت بتحدى الرسالة أو تصديق قول ما كانت آية وحجة على البشر وإن لم تكن نقضاً لعادة الملائكة والجن .

(١) القصص : ٦٨ .

(٢) الأحزاب : ٣٦ .

٥ - الإدراك : وهو كشرط ضرورى عند الشهرستانى يشير إلى أن المعجزة فى حقيقتها يجب أن تكون ذات دلالة عقلية وهو اختصاصها بتحدى المدعى ، وأن تكون ذات دلالة من حيث القرينة ، ومن ثم فالإدراك الحقيقى لا يجعل للإنكار مكان ويزود الفرد بالخبرة والثقة والمعرفة . فالمعجزة إذا ظهرت لأهل الخبرة وحصل لهم العلم بذلك وهم جم غفير فأحرى أن لا يبقى شك لأهل الصناعات الأخرى .

٦ - أن تكون المعجزة للهدى لا للضلال : فإذا علم الرب أنه يرسل رسولاً يهتدى به قوم فهو كما يعلم أن ينصب دليلاً يستدل به قوم فلو أضلهم بعين ذلك الدليل وقع الأمر على خلاف المعلوم وذلك محال ، وكذلك إذا أخبر أنه يرسل رسولاً يهتدى به ثم أضل كل من بعث إليه تناقض الخبر وانقلب الصدق كذباً وذلك محال ، فإن الكذب لا يجوز على الله تعالى ، لأن الكذب إخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو يعلمه على ما هو به ، وكل من علم شيئاً كان له خبر عن معلومه والخبر من المعلوم خبر عن ما هو به فلا يجتمع فى العالم خبران متناقضان . وعلى ذلك ، فإن إرسال رسول وإخلاقه عن دليل الصدق وإظهار معجزة والقصد بها اضلال الخلق ، وإظهار خارق للعادة على يدى كاذب فى معارضة دعوى النبى ﷺ كل ذلك محال .

٧ - الصدق : أى تكون المعجزة دالة على صدق النبى ﷺ لا مكذبة له ، وأن يكون هذا الصدق حاصل من المشاهدة والعلم والمعرفة ، ودال على صدق المدعى ، فيقال هذا المتحدى إما أن يكون صادقاً وإما أن يكون كاذباً ، وبطل أن يكون كاذباً لحصول الخارق للعادة على يديه وعلى وفق دعواه من غير أن يعارضه معارض ، واقتران هذه المعانى معاً يستعقب (يعقبه وينتج عنه) علماً ضرورياً بصدقه ... والنبى ﷺ أولاً يصبح صدقه باستماع دعوته والنظر فى معجزته ، ولا يتصور نبى قط إلا وأن تكون آية الصدق معه ، لأن حقيقة النبوة هى صدق القول مع ثبوت الآية .

ويستطرد الشهرستانى فى بيان أهمية الصدق أى صدق النبى ﷺ كشرط لوقوع المعجزة والحكم عليها والتصديق بها فيقول : وقد تكون الآيات عامة تدل

على صدق قوله فى جميع أقواله وأحواله ، وقد تكون من جنس الأقوال كآية مثل آية الكتاب ، وقد تكون من جنس الأفعال كآيات الإحياء وقلب العصا حية ، والجماد ، وبالجملـة فإن دلالة الصدق لا تتفك عن حاله ومقاله طرفـة عين وذلك هو المعنى بالعصمة الواجبة للأنبياء لأن العصمة لو ارتفعت بطلت الدلالة وتتـأقـضت الدعوة خصوصاً فيما أرسلوا به إليهم وكلف الناس تصديقه فى أقواله وقت بعثه فى أفعاله (١)

وبعد عرض شروط المعجزة التى اتفق حولها الفقهاء وتلك الشروط التى حـددـها الشهرستانى يمكن تحديد الشروط التى وضعها ابن رشد وبيان مدى مخالفتها للشروط السابقة .

أما شروط المعجزة عند ابن رشد فهى :

١ - الصحة والتصديق : أى أن تكون المعجزة شاهدة على صحة النبوة وأن يكون التصديق بالنبوة قبل المعجزة لا بعدها .

ويبرهن ابن رشد على صحة هذا الشرط بالرسالة المحمدية وأن النبى ﷺ لم يقدم للقوم معجزات خارقة كخوارق العادات الحسية ليؤمنوا به أو يصدقوه ، ويدلـل ابن رشد على أهمية هذا الشرط ويقول : ليس يصح تصديقنا للذى ادعى الرسالة عن الملك إلا متى علمنا أن تلك العلامة التى ظهرت عليه هى علامة الرسل للملك ، ولقائل أن يقول من أين يظهر أن ظهور المعجزات على أيدي بعض الناس هى العلامات الخاصة بالرسل ، فإنه لا يخلو أن يدرك ذلك بالشرع أو بالعقل ، ومحال أن يدرك هذا بالشرع لأن الشرع لم يثبت بعد ، أى وقت ادعاء الرسالة والنبوة ، والعقل أيضاً ليس ممكنه أن يحكم أن هذه العلامة هى خاصة بالرسل إلا أن يكون قد أدرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ولم تظهر هذه المعجزات على أيدي سواهم .. ، وهذا يعنى أن ثبوت الرسالة يتوقف على عنصرين هما النبوة والمعجزة ثم وجوب التصديق بالنبوة قبل الرسالة أى المعجزة

(١) عبد الكريم الشهرستانى - نهاية الإقدام فى علم الكلام ص ٤٣٤ - ٤٤٥ .

. ويبرهن ابن رشد على أهمية صحة الرسالة والتصديق بالنبوة فيقول : إن ثبوت الرسالة يبنى على مقدمتين : إحداهما : أن هذا المدعى الرسالة ظهرت على يديه المعجزة ، والثانية : إن كل من ظهرت على يديه معجزة فهو نبي ، فيتولد من ذلك بالضرورة أن هذا نبي ، فأما المقدمة القائلة إن هذا المدعى الرسالة ظهرت عليه معجزة فلنا أن نقول إن هذه المقدمة تؤخذ من الحس بعد أن نسلم أن ها هنا أفعالاً تظهر على أيدي المخلوقين تقطع قطعاً إنها ليست تستفاد لا بصناعة غريبة من الصانع ولا بخاصة من الخواص وأن ما يظهر من ذلك ليس تخيلاً وليس من أمور السحر أو الشعوذات .

- وأما المقدمة القائلة : إن كل من ظهرت على يديه المعجزة فهو رسول ويجب أن نصدق ، فإنما تصح بعد الإعراف بوجود الرسل ، وبعد الإعتراف بأنها لم تظهر قط إلا على من صحت رسالته .

فلنا أن نقول : إن هذه المقدمة لا تصح إلا ممن يعترف بوجود الرسالة ووجود المعجزة ، لأن هذا طبيعة القول الخبري .^(١)

وعند تأمل رأى ابن رشد فى مفهوم الصدق ودلالته كشرط لصحة المعجزة تظهر حقيقة الخلاف بين ابن رشد ومن سبقه من المتكلمين ، لأن المتكلمين رأوا أن المعجزات دالة بنفسها على صدقها وصدق من جرت على يديه ، وأن العقل لا ينكر المعجزات رغم كونها خوارق للعادات لان الخبر والتواتر والحس يؤكدونها اما ابن رشد فيعارض ذلك ويرى أن قوة الفعل العجيب الخارق للغوائد الذى يرى الجميع انه إلهى لا يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من جهة ما يعتقد أن من ظهرت على يديه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب ، بل إنما يدل على أن هذا رسول إذا سلم أن الرسالة أمر موجود وأنه ليس يظهر هذا الخارق على يد أحد من الفاضلين إلا على يد رسول ، ولهذا كان شرط المعجزة الصحة والتصديق أى الأيمان بالله والرسول قبل التصديق بالمعجزات وخوارق العادات لأن المعجزات وخاصة الحسية لا تدل على النبوة ، وهذا معنى قول ابن رشد أن

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة : تحقيق د. محمود قاسم ص ٢١٦ ، ٢٢٦ .

المعجز لا يدل على الرسالة لأن العقل لا يدرك الإرتباط والتلازم بين المعجز والرسالة إلا إذا كان هناك اعتراف وتصديق بأن المعجزة فعل من أفعال الرسالة كالإبراء الذى هو فعل من أفعال الطب فإنه من ظهر منه فعل الإبراء دل على وجود الطب وأن ذلك طيب . (١)

ورغم هذا الاختلاف بين المتكلمين وابن رشد حول أسبقية التصديق ودلالته فإن الإجماع والاتفاق قائم على أن المعجزات سواء حسية أو عقلية هى أفعال وآيات إلهية دالة على صحة النبوة ، وأن التصديق بالنبوات والرسالات والمعجزات واجب شرعى لأنه " أى التصديق " إيمان بالله والكتب والرسل ، وتصديق بالقدرة الإلهية المطلقة كذلك .

وقد صور الماوردى فى أعلام النبوة إجماع رجال الفقه والكلام على أن المعجزات أفعال إلهية تدل على اصطفاء الله للأنبياء والرسل وإنها شاهدة على صحة النبوة ، لأن الله تعالى قدر لعباده أفعالا كما قدر لهم أجساما وأجالاً ، وانتهى إلى غاية أعجزهم عن تجاوزها وخرج عن عرفها من أفعال الله تعالى دونهم فكان بها ممتازاً وإليه تعالى منحازاً فيخص بطاعة إلهية كما اختص بأفعال لا هويّة ، فلذلك صارت الأفعال المعجزة شاهدة على صحة النبوة . (٢)

والغريب أنه رغم هذا الإجماع على ضرورة صحة الرسالة ونسبة المعجزة إلى النبى ﷺ ظهرت بعض الفرق التى أنكرت المعجزات والنبوات كالسمنية والمانوية والزرادشتية والبراهمة والصابئة والرواندية والمجوسية وغيرها وهى الفرق التى تصدى لها علماء الكلام . (٣)

٢ - الاتصال : أى أن تكون المعجزة متصلة بالنبوة والرسالة فالنبوة عند ابن رشد ضرب من الاتصال بين النبى والله . وهذا الاتصال هو الذى يجعل من الممكن حدوث المعجزة وكذلك تصديقها .

(١) عباس محمود العقاد : ابن رشد ص ٦٦-٧٠ ، د/ عاطف العراقى : النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ص ٣٥٩/٣٥٠ .

(٢) د/ على عبد الفتاح المغربى : النبوة والأنبياء ص ١٣٥-١٣٨ .

(٣) سبق التعريف بهذه الفرق والجماعات .

والإتصال عند ابن رشد كشرط لحدوث المعجزة والتصديق بها له عدة معان منها التواصل والكمال والوحدة والتعقل والترابط والشمول .

فالإتصال الذى هو نوع من الكمال الروحى لا يتم إلا بقيام صلة ما بين العبد وربّه ، ولولا هذه الصلة لما حدثت المعجزة . وهذا الإتصال هو نوع من التعقل ، أى السعى لإدراك الموجودات بأسبابها ، ويقوم بهذا الإتصال العقل الهولانى القادر على إدراك الصور بوصفه العقل المتوسط بين النفس الإنسانية والعقل الفعّال ، إذ عن طريق هذا الإتصال يتلقى الإنسان المعانى المجردة والصور المفارقة كالمعارف الدنية أو وحي النبوة .

ويعلل ابن رشد أهمية هذا الإتصال أو التعقل بوصفه الوسيلة الفعّالة لنقل المدركات والمعارف ، لأن العقل المفارق المجرد لا يفعل فى المادة ولا يفعل بها لأنه عقل عام وغير منقسم ، أما المعقولات فهى تختلف وتتميز من شخص إلى شخص حسب قدراته الإدراكية الخاصة ، وأن الإدراك يبدأ بعملية التخيل أى تخيل أفراد الكليات بتخيل صورها المحسوسة ورغم أهمية الإدراك والإتصال فى عملية التصديق بالمعجزة ، يؤكد ابن رشد على أن هذا التفسير العلمى لعملية الإتصال خاص بالفلاسفة ولا يجب إذاعته بين الجمهور .

والإتصال عند ابن رشد يعنى الوحدة والتعقل ويعنى تواصل الخبر والعقل فالخبر المتواتر هو المشاهد الذى يرويه قوم لا يحصى عددهم ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وصدقهم وتباين أماكنهم ، ومع هذا فالخبر وحده لا يكفى للتصديق بالمعجزات والتأكد من صحة محتوى الرسالة وجوهرها لأن الرسالة هى الآية وهى المعجزة الحقيقية وليس ما يرى من خوارق وهذا ما يؤكد ابن رشد ويوافقهُ الماوردى وبعض المتكلمين عليه والذى يقول : ولما كان طريق العلم بالمعجزات هو الخبر والعقل فإن العقل هو الذى يتوقف عليه صحة الخبر وصدقه ، وليس مجرد نقل الرواة ومشاهداتهم الحسية ، وإن الأخبار التى تأتى عن طريق الرسل يلزم قبولها بضرورة العقل ، إذ لا خبر أصدق من خبرهم لأنه يأتى من وحي السماء ومن الآيات الواضحة الدالة على صدقه . (١)

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ٩٩/٣٧/٣٦ ، د/ على عبد الفتاح المغربى . النبوة والأنبياء ص ١٣٨/١٣٥ .

والاتصال عند ابن رشد يعنى أيضاً الترابط والشمول ، ويعنى وحدة الحقيقة وترابط الحكمة والشرعية وشمول المعجزات للجانب الحسى والعقلى ، ذلك لأن المعجز الحسى وحده لا يكفى ولأن المعجزة كآية لأبد أن تشمل الرسالة والوحى والتكاليف والأخبار والحقائق والمعارف وأن تكون منهجاً لصلاح الإنسان وتقويمه وليس مجرد عملية مشاهدة لمعجز حسى كقلب العصا حية أو انفلاق البحر ، أو مجرد إنقاذ للنبي أو الرسول من أعدائه .

والاتصال كذلك يجب أن يؤكد الوحدة وترابط الحكمة والشرعية وعدم الفصل بينهما ، فالحكمة والشرعية عند ابن رشد حقيقتان فى حقيقة واحدة ، إذ الحكمة صاحبة الشرعية واختها الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجواهر والغريزة ، ليس هذا فقط بل إن حقائق الشرع والعلم والحكمة تضمهم الحقيقة الواحدة التى تختلف فى العبارة واللفظ ولا تختلف فى المعنى والجوهر . (١)

٣ - الإتيان : كشرط من شروط المعجزة يعنى النظام والاتساق الضرورى المحكم الذى يؤكد الإعجاز وقدرة الخالق ، والتصديق بالمعجزة وقبولها . والإتيان عند ابن رشد هو الذى يؤكد الحكمة من المعجزة . كما يؤكد العلاقة الضرورية بين الأسباب ومسبباتها ، وهذا الإتيان الذى نراه فى ظواهر وآيات الكون العام وراء نفى ابن رشد لجواز خرق العادات ، لأن فى خرق العادات اختلال النظام والإتيان الذى عليه الكون وما فيه من حكمة ، ومن ثم فإن الإتيان يؤكد الضرورة والحتمية ووجوبها ويتنافى فى الوقت نفسه مع القول بالجواز والإمكان الذى يقول به علماء الكلام ويقول به الأشعرية والغزالي والذين يؤكدون أن المعجزات هى خوارق العادات .

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٢١٣ / ٢١٥ .

وابن رشد : العقاد ٤٥/٣٢ - ابن رشد ماجد فخرى ص ١٠٨ .

وابن رشد : خليل شرف الدين ص ١٢٥/١٢٨ .

ولم يقتصر ابن رشد على أدلة العقل لإثبات الإتيان والضرورة والحتمية ، بل لجأ إلى البراهين النقلية وتفسيرها والتي تؤكد الوحدة والاتساق والترابط والإتيان مثل قوله تعالى : صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون . (١) وقوله تعالى : ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور (٢) وغيرها من الآيات التى يعلق ابن رشد عليها بقوله: من الضروري أن يكون الكون كله على الترتيب والنظام الذى لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتم منه ، فالامتزاجات الموجودة فى الموجودات محدودة مقدرة والموجودات الحادثة عنها واجبة ويوجد ذلك دوماً ولا يختل . (٣)

من أجل ذلك كان الإتيان شرطاً ضرورياً للتصديق بالمعجزات التى تتوافق مع السببية والضرورة والحتمية لأن الإتيان هو دليل الحكمة والقدرة الإلهية والعلم والعناية .

وتفسير ابن رشد لأدلة النقل على الإتيان دال على ذلك فهو يقول : أى تفاوت أعظم من أن تكون الأشياء كلها يمكن أن توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه الصفة ولعل تلك الصفة المعدومة أفضل من الموجودة ، فمن زعم مثلاً أن الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية لم يكن فى ذلك فرق فى صنعة العالم فقد أبطل الحكمة (٤)

ولا شك أن هذا الشرط وتحليل ابن رشد له يبطل الاتهام الذى وجهه إليه فقهاء عصره بأنه ينكر المعجزات ، على اعتبار أن القول بالإتيان والضرورة والحتمية معارض للقول بالإمكان فى وقوع المعجزات بوصفها خوارق للعادات وخرق للضرورة والسببية .

(١) النمل : ٨٨ .

(٢) الملك : ٣ .

(٣) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٢٠٢ .

(٤) د/ عاطف العراقى : تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية . ص ١١٤-١١٥ وفى مناهج الأدلة لابن رشد ص ٢٠٢ .

٤ - التوافق : وهذا الشرط معناه ضرورة أن تكون المعجزة متوافقة مع ما جاء به الشرع ومع ما يقره العقل ، مع الإعتقاد الجازم بأن إرادة الخالق لا يعجزها أمر من الأمور .

وهذا يعنى انه من الضروري أن تكون المعجزة متوافقة مع قوانين العقل والمنطق وليست خرقاً لها ، ومن الضروري أيضاً أن تكون المعجزة متوافقة مع ما جاء به الشرع ومع ما يدعو إليه الرسول صاحب المعجزة ومؤيدة له فى نفس الوقت .

من هنا كان شرط التوافق موضعاً لحقيقة المعجزة وحكم الاعتقاد بها ومدى الارتباط بين التصديق بالمعجزات والإيمان بالرسول والرسالات وتصديقها . وتفسير ذلك عند ابن رشد أن الشريعة أوجبت النظر العقلى المؤدى إلى المعرفة بالله والكون وجميع الحقائق ، وأن النظر العقلى لا يؤدى إلى ما يخالف الشرع ، وأن المعجزات إذا كانت واجبة وليست ممكنة فهى لا تحتاج إلى أدلة وبراهين ، أما إذا كانت ممكنة أو جائزة فهى تعرف معرفة تقريبية ومن ثم فهى بحاجة إلى أدلة وبراهين . (١) .

وهذا الوجوب العقلى والشرعى عند ابن رشد هو الذى يؤكد شرط التوافق كما يؤكد أن تكون المعجزة متوافقة مع العادة وليس خارقة لها .

ومن الملاحظ أن هذا الشرط كان موضع الخلاف بين ابن رشد ومن سبقه من المتكلمين وخاصة الأشعرية والغزالي ، وفى نفس الوقت كان عاملاً من عوامل التقارب فى رأى بين المتكلمين المؤيدين للعقل كالباقلانى والماتريدى وغيره مع إتفاقهم حول حقيقة المعجزة وكيفية التصديق بها ، ومثال ذلك ، أن ابن تيمية مثلاً فى كتاب النبوات يتوافق مع ابن رشد فى كون المعجزة آية وبرهان ودليل فى ذاتها وإنها تعرف بالضرورة والاستدلال ، وأن المعجزات هى الآيات الشاهدة على صدق الأنبياء ورسالاتهم ، ومع هذا فإن ابن تيمية يشترط أن تكون المعجزة خارقة للعادة وغير متوافقة مع قوانين الضرورة والحتمية .

(١) خليل شرف الدين : ابن رشد ص ٨٤-٨٦ .

أما الباقلاني فيشترط أن تكون المعجزة خاصة بدار التكليف لأن ما يظهره الله تعالى في الآخرة من الأمور الخارجة عن العادة ليس بمعجزة .

أما لما تريد فيشترط التمييز بين المعجزات وغيرها من خوارق العادات كالسحر والكرامات ، ويرى أن المعجزة هي آية صدق الأنبياء وهي تخرج على خلاف الأمر المعتاد بين الناس ويجريها الله على أيدي من أرسلهم وهي من فعل الله تعالى .

ومع هذا يؤكد لما تريد على أن دور العقل هام في إدراك حقائق المعجزات لأن معرفة النبوات ليست اضطرارية بل اكتسابية والعقل هو سبيل معرفة حجة الرسل والتمييز بينها وبين تمويهات السحرة . (١)

وعند المقارنة بين شروط المعجزة التي وضعها ابن رشد والشروط التي وضعها سلفه من الفلاسفة أو من المتكلمين ندرك مدى أهمية وعبقريّة ابن رشد وصدقه ومنهجية في بيان دور العقل وأهمية البرهان حتى في مجال المعجزات وخوارق العادات .

فقد اتفق المتكلمون على الشروط العامة التي يجب توافرها في المعجزة والتي تميزها عن غيرها من خوارق العادات وهي :

١ - أن يكون فاعل المعجزات هو الله تعالى ، لأنه لا مؤثر ولا موجد ولا مكون إلا الله ، وأنه مادام فاعلها هو الله فيجب أن تكون واحدة ومتميزة ولا تتكرر ولا مثيل لها ومما لا يقدر عليه البشر ، ولا يستطيع بشر الإتيان بمثلها ولو استعان بسحر أو جان ، لأن كل ما هو في مقدور البشر لا يسمى معجزة ، وبالتالي فإن المعجزة الخارقة للعادة هي الدليل على صدق الرسول وأنها ليست من عنده .

٢ - أن تكون المعجزة خارقة للعادة ، أي مخالفة لعادات البشر ومعلوماتهم ومشاهداتهم ، ومن ثم يجب أن تكون المعجزة متميزة وغير مألوفة وغير متوافقة مع قوانينهم أو قوانين الطبيعة المعروفة .

(١) د/ على عبد الفتاح المغربي : النبوة والأنبياء في الفكر الإسلامي ص ١٢٦/١٢٩ .

ومثال ذلك عندهم أنه إذا ادعى صاحب المعجزة أن آية صدقة أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب في المغرب فلا تكون هذه معجزة ولا دليلاً على صدقه ، لأن ذلك معتاد ومألوف وليس من إعجازه أو صناعته ولأن المعجزة في حقيقتها شيء لم تجربه العادة .

٣ - أن تكون الدعوة مصاحبة ومقترنة بالدعوة والرسالة وصاحبها ، وخاصة به وحده وبدعوته ، لأنه إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد رجل آخر غيره لم يدع إلى رسالة أو يدعى نبوة فقد يكون الأمر كرامة له أو مجرد علامة على صلاحه وتقواه وقربه من الله ، وإن كان هذا الرجل من عامة الناس فمعونة له لإنقاذه من موقف ما ولا تسمى عندئذ بمعجزة .

٤ - أن تكون المعجزة دليلاً على صدقه وليست دليلاً على كذبه ، لأن شرط تصديق الدعوة أو المعجزة أن تكون المعجزة مؤيدة لدعوة النبي ودالة على صدقه لا مكذبة له ومثال ذلك عندهم ما روى عن مسيلمة الكذاب حين ادعى النبوة وحاول تقليد النبي محمد ﷺ فحاول شفاء عين أحد المرضى فقتل في عينه فاعورت وفسدت فأدرك الناس بالفعل أن مسيلمة ليس بنبي وأطلقوا عليه اسم النبي الكاذب أو مسيلمة الكذاب .

٥ - أن تكون المعجزة من المستحيل الذي لا يتكرر أو يمكن تقليده ومن ثم وجب أن تكون المعجزة مقرونة بالتحدى ليعجز البشر فرادى أو جماعات عن معارضتها أو الإتيان بمثلها ، ولهذا كانت المعجزة واجبة التصديق لأنها الدليل الأكيد على صدق النبي وأن مرسله هو الحق سبحانه ، وأن من المستحيل أن يأتي بمثلها بشر .

ودليل ذلك عندهم آيات الكتاب ودعوة النبي للعرب أن يأتوا بمثله أو أجزاء منه أو بما يشابهه فعجزوا عن ذلك ، ونزل في هذا قوله تعالى " فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين " . (١) " وقوله تعالى : " فأتوا بعشر سور مثله مفتريات " . (٢) وقوله تعالى : " قل فأتوا بسورة مثله وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين " (٣) .

(١) الطور : ٣٤ .

(٢) هود : ١٣ .

(٣) يونس : ٣٨ .

٦ - أن تكون المعجزة مناسبة لظروف الزمان والمكان والعصر وصاحب الدعوة أيضاً ، وهذا يعنى ضرورة أن تكون المعجزة من جنس ما برع فيه القوم ويحسنونه لكي يكون التحدى قوياً ومؤثراً ويكون خرق المعجزة للعادات أقوى فى الدلالة على صدق النبى ودعوته ومثال ذلك عندهم ان معجزة ابراهيم عليه السلام جاءت فى قوم يعبدون النار ويقدسونها ويقدرّون قدرتها على الإحراق ، فتأتى معجزة إبراهيم فى عجز النار على إحراقه .

وكذلك معجزة موسى عليه السلام جاءت فى عصر تقدّم السحر وتأتى المعجزة فى عجز السحر واثبات عجز السحرة وإبطال سحرهم .

وكذلك معجزة عيسى عليه السلام جاءت فى عصر تقدّم الطب وعلاج الأمراض ، فتأتى معجزته من نفس علمهم واهتمامهم فتفوقهم قوة لا مثيل لها فيشفى عيسى أمراضاً لا تشفى بل ويحيى أممهم الموتى بإذن الله . وكذلك معجزة محمد ﷺ تأتى فى عصر تقدّم اللغة والفصاحة والبيان لتثبت عجز العرب وعدم قدرتهم فى أن يأتوا بمثل القرآن وليقفوا حائرين صاغرين أمام إعجاز القرآن البلاغى والعلمى فى ضبطه ونظمه وبيانه وشموله للعلوم والحكم والمعجزات .^(١)

(١) راجع تفاصيل المعجزات وشروطها فى كتب النبوة والعقائد وعلم الكلام منها الباقلانى فى إعجاز القرآن ، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والخليلى فى جواهر التفسير ج ١ ص ٤٥-٤٨ . و عبد الرحمن الميدانى فى العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٣٣٩ . والسالمى فى مشارق أنوار العقول ج ٢ ص ١١-١٢ . و جعفر السبحانى فى مفاهيم القرآن ج ٤ دار الأضواء بيروت ص ٩٥-١٥٣ .

ثالثاً : المعجز الحسى والمعجز العقلى عند ابن رشد :

كان تمييز ابن رشد بين المعجز الحسى والمعجز العقلى وتقديم العقلى على الحسى سبباً فى العديد من التساؤلات والشكوك التى أثارها الفقهاء وعلماء الكلام فى عصره ، حتى أنهم وجهوا إليه تهمة الكفر والإلحاد على أساس أنه ينكر المعجزات .

وهذا يفسر القول بأن نكبة ابن رشد وإحراق كتبه الفلسفية واتهامه بالكفر يرجع إلى موقفه من مسألة المعجزات وردة على الأشعرية والغزالي فى هذه المسألة وتقديمه للمعجز العقلى على المعجز الحسى .

والمعجز الحسى على العموم هو جملة الأفعال التى أجراها الله على يد من اصطفى من أنبيائه لتكون دليلاً على نبوتهم وإنقاذاً لهم من أعدائهم ، وهى أمور تفوق قدرة البشر وتخرج عن المعهود والمألوف ، وحين يشاهدها الخلق يتعجبون ولا يملكون سوى التصديق بها والإيمان بحكمة الإله وقدرته ، ومثالها إنقاذ إبراهيم عليه السلام من الإحراق ، وفلق البحر وقلب العصا حية لموسى عليه السلام وإنقاذه من فرعون ، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام وإنقاذه من شرور قومه .

والمعجز الحسى عند ابن رشد بهذا الوصف هو مجرد علامة خارجية أو حدث مرئى قد يؤكد وجود الرسالة أو أن صاحب المعجزة هو النبى المرسل إليهم إلا أنه ليس دليلاً كافياً على صحة رسالته أو التصديق بها ، وقد يرى عامة الناس فى المعجزة دليلاً إلا أن الدليل الوحيد الذى يثبت صدق رسالة من الرسالات هو الشرائع والأحكام التى تتضمنها تلك الرسالات والحقائق التى تكشفها للناس وما يكون فيها من صلاح وخير لهم .

وعلى ذلك فالمعجزة يجب أن تكون هى الشريعة نفسها ، وليس ما يظهر من خوارق ، ومثال المعجزة العقلية هو الشريعة التى صدع بها النبى محمد ﷺ ، ولأن النظر العقلى أمر واجب بالشرع ، وبراهين العقل يجب أن تتوافق مع روح الشرع وتستمد فى أكثرها من آيات القرآن بعد تأويلها التأويل العقلى السليم ، من أجل ذلك كان المعجز العقلى أهم من المعجز الحسى ومتقدم عليه .

وهذا هو ما ذهب إليه ابن رشد وسبقه إليه رجال الاعتزال والأشاعرة وقد حاول ابن رشد تبرير تميز المعجزة المحمدية عن باقي المعجزات وذلك بإثبات تميز المعجز العقلي الجواني عن المعجز الحسي البراني فقال : إن دلالة القرآن على نبوة الرسول ﷺ ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حية على نبوة موسى ، ولا إحياء الموتى وإبراء الأكهم الأبرص على نبوة عيسى ، فإن تلك وإن كانت أفعلاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء وهي مقنعة عند الجمهور فليست تدل دلالة قطعية إذا انفردت ، أما القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب ، فالنوع الأول هو هذا النوع من المعجزات التي تدل دلالة قطعية يقينية على وجود الرسل وشريعتهم ، وقد استمدت صفة القطع واليقين من كونها مناسبة للصفة التي من أجلها وصف إنسان ما بأنه رسول أو نبي .

أما النوع الثاني من المعجزات ويقصد به المعجز الحسي: فلا يعد يقيناً كللنوع الأول لأنه لا يدل على الصفة التي من أجلها وصف النبي أو الرسول بانه كذلك ، فلا بد أن تدل الصفة تماماً على الموصوف ، فلفظ الرسول يجب أن يكون مطابقاً للصفات الواجب توافرها في الرسول شأنه في ذلك شأن لفظ الطبيب ، ومثال ذلك : لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما : الدليل على أني طبيب أني أسير على الماء ، وقال الآخر : الدليل على أني طبيب أني أبرئ المرضى ، فمشى ذلك على الماء ، وأبرأ هذا المرض لكان تصديقنا بوجود الطبيب للذي أبرأ المرض ببرهان وتصديقنا بوجود الطب للذي مشى على الماء مقنعاً من طريق الأولى والأخرى ، ووجه الظن للذي يعرض على الجمهور ذلك أن من قدر على المشي على الماء الذي ليس من وضع البشر فهو أولى أن يقدر على الإبراء الذي هو من صنع البشر . (١)

وابن رشد يطلق على النوع الأول من المعجزات المعجز الجواني أي العقلي ، ويطلق على النوع الثاني من المعجزات المعجز البراني أي الحسي ، مشيراً إلى أن الثاني لا يدل على حقيقة النبوة أو الرسالة بقدر دلالاته على القدرة الإلهية المطلقة ،

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة ص ٣٢١ . وفي النزعة العقلية لأبن رشد : د/ عاطف العراقي ص

فى حين أن المعجز العقلى بوصفه الرسالة هو الدال على النبوة ويستحق اسم المعجزة والتقديم .

ومن الملاحظ أن هذا الرأى الذى ذهب إليه ابن رشد له من يؤيده سواء من المتكلمين القدامى أمثال الرازى والباقلانى ومن المفكرين المعاصرين أمثال الإمام محمد عبده والدكتور عاطف العراقى والدكتور على المغربى وغيرهم . فالفخر الرازى فى النبوات يؤكد على أن القرآن هو المعجز الأكمل والأتم بالنسبة للنبي ﷺ وأنها تفوق فى قوتها ودلالاتها أى نوع آخر من المعجزات الخارقة للطبيعة ودليل ذلك عنده أن القرآن ينتقل بالإنسان من مرحلة الإيمان عن طريق المعجزة الحسية وحدها الخارقة للطبيعة التى تبهر الأنظار إلى طريق الإيمان القائم على التفكير والعلم والبرهان وأن الدليل على الصدق هو اتساق القانون الطبيعى لا أن يكون خرق ذلك القانون ، والانتقال بالإنسان من بناء إيمانه على المعجزات الحسية إلى بنائه على المعجزات العقلية وأن القرآن يدلنا : أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية ومقنعة لما كذب بها الأولون بعد أن ألحوا فى طلبها وأجيبوا إليها (١) وهذا نفس ما ذهب إليه ابن رشد . ونفس الموقف يؤيده الباقلانى فى إعجاز القرآن عندما يقدم القرآن كمعجزة على باقى المعجزات ، ويرجع سبب ذلك إلى ما يتصف به القرآن من صفات العمومية والثبات والاستمرار والبقاء ويقول : فهو وإن كان قد تأيد بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة وأحوال خاصة ونقل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً ، إلا أنه نقل عن الجمع العظيم وأنهم شاهدوه ، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لأنكروه ، أى أن دليل بعض تلك المعجزات التواتر والبعض الآخر هو الأحاد ، فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة عمت الثقيلين وبقيت بقاء العصرين ولزوم بعجز أهل العصر الاول عن الإيتان بمثله وجه دلالاته فيغنى ذلك عن نظر محدد فى عجز أهل هذا العصر عن الإيتان بمثله عن النظر فى حال العصر الأول . (٢)

(١) الفخر الرازى : النبوات وما يتعلق بها ص ١٦٨، ١٦٩، ١٧٧ ، د/ على عبد الفتاح المغربى : النبوة والأنبياء ص ١٣٩-١٤٢ .

(٢) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٨ ، والنبوة والأنبياء د. المغربى ص ١٤٨/١٤٩ .

ومن المعاصرين يأتي الإمام محمد عبده والدكتور عاطف العراقي في مقدمة المؤيدين لهذا الرأي الذي ذهب إليه ابن رشد من أن المعجزة هي الرسالة والوحى وهي الدليل الأكيد على النبوة وصدق الرسالة ، وبوصفها الأمر الخارق الذي تحدى به النبي قومه ليؤمنوا به ويصدقوه ، وعلى ذلك وجب تقديم المعجز العقلي على المعجز الحسي ، ويؤكد هذا الدكتور عاطف العراقي فيقول : إن ابن رشد قد فهم المعجزة فهماً لا يتنافى ونزعتة العقلية ، فالمعجزات عنده ليست إلا عجائب ناشئة عن كمال الخواص الإنسانية عند النبي ﷺ وليست معجزات بمعنى الكلمة أي تتجاوز العقل الإنساني أو أنها خارقة للعادة . ويؤكد الدكتور عاطف أن رأي ابن رشد هذا لا يعنى نفيه للمعجزات كلية ، بل إن تفرقه بين المعجز الجواني والمعجز البراني قامت على أساس رأيه في التوفيق بين العقل والشرع ، وإذا كان المعجز الجواني مناسباً لأهل البرهان فإن المعجز البراني قد أعد للذين يسلكون مسلك الإقناع .

ويرى الدكتور عاطف العراقي أن ابن رشد عندما أراد تحديد نوع المعجزة التي يعتمد عليها الشرع نادى بالمعجز الجواني لكون معجزة النبي هي القرآن ، وإذا كانت هنا لك حوادث خارقة للعادة فهذه الحوادث أشياء ثانوية تمثل المعجز البراني الذي ضرب أساساً لأهل الإقناع ، ومن ثم فإن كل ما يعوذنا هو المعجز الجواني المناسب . أما إذا ذهبنا إلى القول بأن قوانين الطبيعة لا يمكن أن تقيد قدرة وضعتها وبهذا يكون المعجز البراني ممكناً فإن هذا لا يؤدي إلى دراسة الطبيعة ووضع قوانين ثابتة شاملة لها ، وليست العبرة بالقول بأن المعجز المناسب لدليل دقيق ميسر حتى على الخاصة للاقتناع به وإقناع الغير لأنه يقوم على تقدير صلاح الشريعة وموافقته لكمال الإنسان وسعادته ، وهذا التقدير لا يتجاوز حد الاقتناع الأدبي ، أما المعجز البراني فالتثبت من وقوعه أسهل ولكن العبرة بما يتفق وأدلة العقول ومنطق الوجود معاً . (١)

وذلك في إشارة إلى أن ابن رشد قد ميز بين المعجز الحسي والمعجز العقلي على أساس مدى الحاجة إلى المعجزة ومقدار الصدق ودليل البرهان والتأكيد على

(١) د/ عاطف العراقي : النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ص ٣٥٨-٣٥٩ .

أن المعجزة الحقيقية يجب أن تكون هي الرسالة والوحي لتكون دليلاً أكيداً على النبوة وصدق الرسالة .

ويؤيد الدكتور على المغربي في كتابه النبوة والأنبياء ما ذهب إليه ابن رشد من تمييز وتقديم للمعجز العقلي على المعجز الحسي ويعقد مقارنة بينهما وليبين أفضلية المعجز العقلي المتمثل في القرآن الكريم على باقي الخوارق والمعجزات ويؤكد أن المعجزات الحسية التي جاءت على أيدي الأنبياء لا تكون وحدها هي الطريق الوحيد إلى إثبات نبوة الأنبياء بل هي تمثل أحد هذه الطرق بل هي أضعف دلالة وقوة من المعجزات العقلية . ويبرر الدكتور المغربي أسبقية المعجز العقلي وأفضليته بقوله : إن المعجزات الحسية معجزات وقتية وبالتالي معرضة للنسيان أما المعجزات العقلية فهي دائمة التأثير والمفعول وهي باقية في كل زمان ومكان ، لأنها ليست فعلاً حسياً خارق للعادة وما ألفه الناس . ويرى أيضاً : أن الحكم على المعجزات الحسية من حيث القوة والضعف لا يعنى الشك فيها كحدث وقع بالفعل واقترن بدعوى الأنبياء وكان دليلاً على صدقهم ، ومع هذا فهي لا تدخل في مضمون الدعوة ذاتها لأنها لا تحتوى على أية تعاليم بل هي مقدمة ضرورية يسلم بها القوم للنبي ويأخذون عنه مضمون الرسالة .

ولأنها كذلك فإن التصديق بها لا يدخل ضمن التصديق بالرسالة وما فيها من أمور تكليفية تعبدية ، وأن التصديق بها وحدها ليس كافياً للإيمان بما جاء به الرسول كما أن إنكارها لا يعنى بالضرورة إنكار ما جاء به الرسول ، وهذا هو موقف فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام الذين تناولوا مسألة المعجزات وخوارق العادات وقارنوا بين معجزات محمد ﷺ ومعجزات باقي الأنبياء ، وحديثهم عن المعجزات العقلية ، وهو نفس ما ذهب إليه ابن رشد في هذه المسألة . (١)

وعند المقارنة بين رأى ابن رشد ورأى المعاصرين في تفسير المعجز الحسى والعقلي يأتى رأى الإمام محمد عبده في مقدمة الآراء التى تقترب إلى حد بعيد من

(١) د/ على عبد الفتاح المغربى : النبوة والأنبياء ص ١٤٤ - ١٤٦ .

رأى ابن رشد ، من حيث تمييز الإمام محمد عبده بين نوعين من المعجزات والإعلاء من المعجز العقلي والتأكيد على أن العقل هو وسيلة الإيمان الصحيح .

ولأن مسألة المعجزات والتصديق بالخوارق تثار أمام العقل في كل عصر لارتباطها بقضايا الوعي والدين والعلم ، ومدى تأثر العوام وتصديقهم بمعارف الحس ، والانحراف عن أصول الدين والاعتقاد الساذج بالخوارق والأسطورة ، وإمكان الجمع بين المعجزات وباقي الخوارق وأعمال السحر وكرامات الأولياء .

من أجل ذلك كان اهتمام رجال الفكر في العصر الحديث بمسألة المعجزات والخوارق وخاصة مسألة التمييز بين المعجزات الحسية والمعجزات العقلية كما فعل ابن رشد من قبل وكما فعل الإمام محمد عبده في عصرنا .

فقد نبه الإمام إلى خطورة القول باعتبار المعجزات واستمرارها وإنها شيء ممكن الوقوع في كل زمان ومكان ، كما نبه من خطورة انتظارها وتوقعها وتصديقها دون حاجة أو دليل ، وأكد في رسالة التوحيد على أن المعجزة ليست من المستحيل العقلي لأن السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقد دليل على استحالة بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد في أمر المريض حين يمتنع عن الأكل مدة ، فإذا لم يأكل وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإلتاف (١) .

وعن القرآن كمعجزة عقلية يؤكد الإمام محمد عبده على أن معجزة النبي ﷺ تختلف عن سائر المعجزات وتتميز بعدة مميزات منها :

١ - أنها تقوم على حال النبي نفسه والقرآن المنزل عليه ودعوة العقل لإدراك وجوه الإعجاز .

٢ - أن القرآن كمعجزة قد نهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي نزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه .

(١) الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ط مكتبة القاهرة ١٩٦٠ ص ١٧ .

٣ - أن القرآن كمعجز عقلى لم يقصر الاستدلال على نبوة النبي ﷺ بما عهد من الاستدلال به على النبوات السابقة بل جعل الدليل فى حال النبي ﷺ مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز العلماء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة فيه ، وقص علينا عن صفات الله ما أذن لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه أقام الدعوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

٤ - أن القرآن معجزة عقلية تخاطب العقل وتحفزه على النظر والتأمل . ودليل ذلك عند محمد عبده : أن النظر العقلى هو الأصل الذى بنى عليه الإسلام ، وإن العقل هو وسيلة الإيمان الصحيح ، وأن منهج القرآن فى إثبات الإيمان هو العقل والفكر والبرهان ، وأن القرآن كمعجزة عقلية لا يدهشك بخارق للعادة ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية . (١) فتلك براهين وعلامات تؤكد تميز القرآن كمعجزة عن باقى الخوارق الحسية الأخرى كما تؤكد تردد آراء ابن رشد فى عصرنا وتأثر الإمام محمد عبده وغيره بآراء ابن رشد وخاصة فى المعجزات .

كما تؤكد ضرورة بيان حقائق المعجزات لكشف ما يردده الجهال من خرافات وخطهم بين المعجزة والخرافة وبين المعجزات والكرامات والحيل .

(١) راجع رأى الإمام محمد عبده فى المعجزات والخوارق فى رسالة التوحيد ص ١٧، ٨٠، ٧

والإسلام والنصرانية ص ٤٨، ٤٧

والتفكير فريضة إنسانية / عباس محمود العقاد . المجموعة الكاملة ص ٢٦٣ .